

نبيل على مقال

أثر المرأة

في حياة الشيخ محمد عبده
للأستاذ عثمان أمين

كتب أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق بك في مجلة «الشباب» (١) مقالا عنوانه «أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده»، ونحن مع إعجابنا بما حوى هذا المقال من طرافة ودقة بحث، هما شأن أستاذنا فيما يسطر قلبه البارع، نرجو أن يسمح لنا في التعليق عليه ببعض ملاحظات

ذكر أستاذنا كيف كان قصر الأميرة نازلي فاضل (٢) مجتمعاً للعظماء وقادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأشار كذلك إشارات لطيفة إلى ما اتصفت به الأميرة من صفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والاحترام. ونحن من جانبنا نوافق أستاذنا مصطفى بك فيما ذهب إليه من أمر تلك المودة الصادقة التي قامت بين الشيخ محمد عبده وبين الأميرة نازلي والتي كان لها - من غير شك - أثر عميق في حياة الشيخ وفي نفسه الكبيرة الحساسة.

ولقد وقع لنا - أثناء بحثنا عن آثار الأستاذ الإمام - خطاب يشهد بوجود تلك الصداقة التي ذهب إليها حضرة صاحب المقال؛ والخطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها. وهذا نصه:

Samedi

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir après 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincère,

Nazli

وليك ترجمة الخطاب (٣):

(١) العدد الأول الصادر بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٢٦

(٢) ابنة الأمير مصطفى قاضل صاحب الخطاب المشهور المرفوع إلى السلطان عبدالعزیز

سنة ١٨٦٦ والذي ترجمه فتحى باشا زغلول بعنوان: «من أمير إلى سلطان»

(٣) الخطاب مجلد بالسواد كتبت الأميرة على غلافه بالعربية: «عزت لى شيخ

محمد عبده حضرت لى، ولم ترسله إلى الإمام عن طريق البريد، بل حمله إليه

رسول من

السبت

صديق العزيز:

أرجوك أن تحضر لرؤيتي هذا المساء بعد الساعة السابعة
أنا آسفة إذ فائتني رؤيتك أمس

صديقتك المخلصة:

نازلي

فأمر الصداقة إذن حق. واختلاف الشيخ محمد عبده إلى قصر الأميرة أمر مقرر. ولعلنا الآن لا نبالي إذا قلنا إن عناية الشيخ محمد عبده باتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التي كانت تتكلم بالفرنسية كأحدى بنات «النسب» ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع. ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التي وجدت بمكتبة الأستاذ الإمام، والتي تعالج منها شؤون الأدب الفرنسى بنوع خاص، تؤيد ما ذهبنا إليه من أثر الأميرة في ميول الأستاذ الإمام وإطلاعاته.

أراد أستاذنا الفاضل مصطفى بك أن يبين أثر الأميرة في حياة الشيخ محمد عبده من ناحية أخرى، فذكر في آخر مقاله أن الشيخ كان يحجر أول أمره بعداوته لانبجلازا ويكتب في ذلك فصولا ضافية، ثم قال: «أما بعد اتصاله بالأميرة نازلي التي كان هواها مع انبجلازا، وكانت صديقة للورد كرومر، فقد تلاشت عداوة انبجلازا من صدر استاذنا (محمد عبده) وأصبح يحجر في كتاباته ودروسه أن بريطانيا العظمى أحسن الدول استعماراً». فهل يسمح لنا فضيلة الأستاذ أن نبدي في هذه النقطة رأياً آخر؟

إذا كان الإمام محمد عبده، أول أمره، قد حمل على الانبجلاز حملات شديدة، فقد كان ذلك في جريدة «العروة الوثقى» أيام اتصاله بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى. فكان يكتب وهو في باريس، مدفوعاً بحماسة الشباب، ومرارة المنفى بعيداً عن وطنه، ومثأثراً بأراء استاذة الأفغانى، وقد كانت على ما يعلم الجميع - ترمى إلى الثورة سواء بتأليف الجمعيات السرية، أو الاذاعة بالقلم واللسان. أو استعمال العنف والقتل، وبالجملة القيام في وجه الظالمين المستبدين سواء أكانوا شرقيين أم غربيين (١).

(١) انظر: Blunt, (Secret History, P. 489)

وكان محمد عبده ، أول الأمر يعتقد أكثر آراء استاذة الافغانى ، لكنه بعد عودته من باريس وحبوط الدعوة وانفصاله عن استاذة ، عدل آراءه الأولى ، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدرج متوخياً الإصلاح ، لامن طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية ، وكان الاستاذ المصلح يتحدث عن هذا فيقول :

« علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين . وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبداً بترغيبها في استشارة الأهالى في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة . وليس من اللائق أن يفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناسي . قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويقضى إلى التهلكة » (١)

أما عن الإصلاح الدينى فهو يقول فى رده على هانوتو : وإن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم (أعنى المصلحين من المسلمين) إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلبت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، وتهذبت الأخلاق بالملكات السليمة . ولم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء فى مصر أو غيرها ، أن يشرقتة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . (٢) فلما أراد محمد عبده تطبيق وجوه الإصلاح على الأزهر بادخال العلوم الحديثة فى برامجها - وكانت أولى محاولاته الإصلاحية فى عهد الخديو توفيق -

قام فى وجهه شيوخ جامدون على ما ألفوا من تقليد ، ولم يفتنوا إلى مدى إصلاحه ، وبعد ذلك نظر الشيخ عبده إلى السلطات العليا يتلبس عندها التأيد ، فوجد من الخديو عباس الثانى مناوأة له ومناصرة لخصومه ، ولقى الامام فى ذلك من الأذى كثيراً . ولسنا اليوم بحاجة إلى بيان ما كان فى خصومة الخديو للأستاذ الامام من شدة ، فذلك أمر مشهور . وحسبنا أن نشير إلى تلك الوثيقة التاريخية الخطيرة التى نشرها أخيراً احمد شفيق

(١) انظر : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢١٧

(٢) راجع : السيد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها

باشا (١) والى أرسلها الخديو إلى شفيق باشا - وكان إذ ذاك رئيساً للديوان العالى - يؤنبه فيها على السير فى جنازة الشيخ محمد عبده إزاء الدسائس المتوالية والحملات المنكرة التى كانت توجه من كل صوب إلى رجل الإصلاح ، لم يكن للأستاذ الامام بد أن يدير وجهه إلى السلطات الانجليزية (٢) فعرف « لورد كرومر » وأقنعه بوجهته فى الإصلاح ، ووجد محمد عبده الملقى من العون عند كرومر ما أخطأه عند عباس الثانى وعند شيوخ الأزهر . ومن اطلع على التقارير السنوية التى كان يقدمها لورد كرومر إلى حكومته وجد فيها ذكراً طيباً للشيخ محمد عبده وتقديراً لأعماله . وعيد الانجليز فى مصر يذكر لنا نفسه أن مناصرته محمد عبده لم تكن بالأمر اليسير نظراً لما كان يلقاه الامام المصلح من خصومة المحافظين له وكراهة الخديو إياه ، بل لولا كرومر ما بقى محمد عبده فى منصب الافتاء طويلاً (٣)

نرى مما تقدم أن الشيخ عبده لم يصادق الانجليز عفواً ولا إرضاءً لهواه ، بل ألجأته إليه الظروف : كان يريد الإصلاح حقاً ، ولم يكن بمقدوره أن يمتنع فى إصلاحه وأهل الجود والتقليد يقيمون فى وجهه العراقيل ، ويحكون من حوله ضروب الدسائس ، فكان طبيعياً إذن أن يلتزم موافقة الانجليز . وكان لهم حينذاك النفوذ الفعلى فى البلاد

على أن رضاه عن سياسة بريطانيا فى مصر لم يكن ينسبه واجبه كوطى ، بل كأول من حاول بث الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولم تكن تفوته فرصة دون أن يطالب فيها بقيام دستور للحكم العادل فى البلاد ، ووضع حد للتدخل الذى كان

(١) انظر : احمد شفيق باشا : مذكرياتى فى نصف قرن . الجزء الثانى .

سنة ١٩٣٦ ص ٧١ إلى ٧٤

(٢) يعلم الناس ان المحافظين الجامدين قد بلغ من شدة معارضتهم للإصلاح المبني ان ألفوا حزبا (على رأسه الشيخ محمد الرافى والشيخ المنصورى) لمناوأة الشيخ محمد عبده . وحدث فى ذلك الحين أن صدرت من الاستاذ الامام فتوى تحيى للمعلم طعم أهل الكتاب والتزى بزي الفريين إذا اقتضت ظروف الحياة ان يعيش بين الأوربيين . وما كادت تداع هذه الفتوى حتى قام لما حزب المعارضين ونادى بالويل والثبور ، واخذ يشيع فى الناس ان مفتى الاسلام إنما يعمل على التآليف بين المسلمين والمسيحيين . وأنشأ الحزب جريدة يومية للامن على فتوى الامام ، وقيل فى ذلك الحين ان مدير تلك الجريدة كان يؤيد من الجهات الرسمية مقرا من الخديو . . . إلى آخر ما هناك حتى شاع انهم ارادوا عزل المفتى لولا ان تدخل « كرومر » آخر الامر وصرح « ان المفتى هو المفتى وأنه سيظل مفتياً » . وقد سجلت جريدة « المقطم » هذه الاشاعات فى ذلك الحين

(٣) انظر : (Gromer, (Modern Egypt), vol. II. P. 180.